المسئولية التربوية للآباء

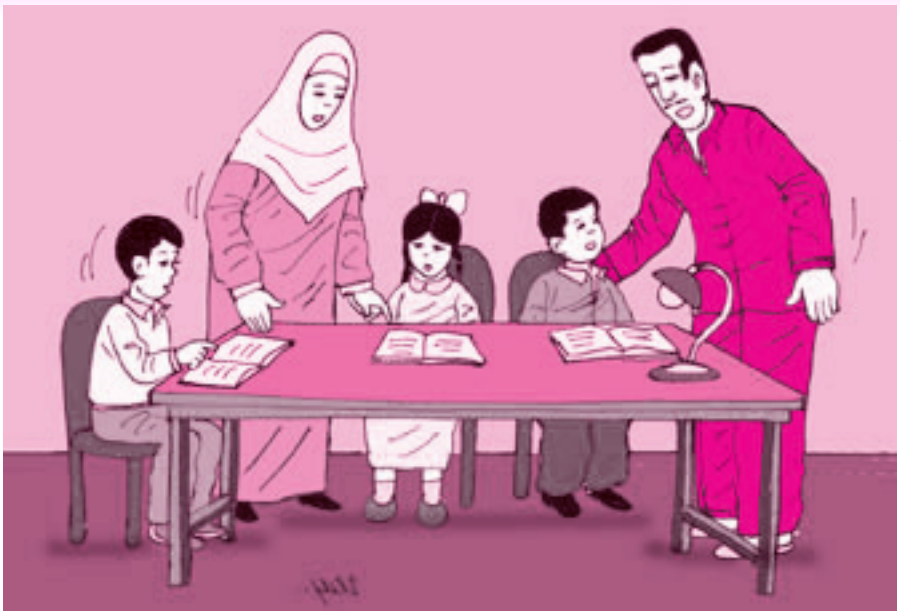

تستمد الدراسات التربوية العربية الحديثة مصطلحاتها وأكثر مفاهيمها ونظرياتها العلمية من الفكر التربوى الغربى الذي نعلم جميعا أنه فكر مادى المنشأ نفعى الغاية، وقد هم فريق من الباحثين التربويين العرب المعاصرين بدراسة أصول التربية من منظور إسلامى إلا أن كثيرا من دراساتهم لم تحقق أهدافها فهى تحيط ولا تغوص تدور ولا تعمق تومئ ولا تتلمس ومن ثم فقد غامت لديها الرؤى وسرعان ما تبخرت ولم يبق منها سوى الذكرى الطيبة والنيات الحسنة.

وفى رأينا أن أى دراسة تربوية إسلامية تحتاج لكى تتحقق لها المصداقية إلى قواعد منطقية علمية تنطلق من محورين:

الأول: هو القرآن الكريم ممثلا في دراسات المفسرين العميقة المؤصلة المنتقاة من شوائب الإسرائيليات والموضوعات.

الثانى: السنة النبوية الصحيحة ممثلة فى شروطها الأصلية المنتقاة أيضا من الدخيل والمدسوس.

وسوف تتناول السطور القادمة قضية تربوية من منظور إسلامى بحت هى قضية المسؤولية التربوية للآباء. وقبل أن نشرع فى تناولها نشير إلى أن هناك عدة مسلمات فى القضية هى:

١. أن الكتابات التربوية الحديثة ذات المنطلقات الغربية المادية تشير دائما إلي الدور التربوى للأسرة ولا تعلق المسؤولية التربوية فى رقاب الآباء وحدهم وهى فى هذه النظرة تستند إلى واقع اجتماعى مغاير نسبيا لواقع المجتمعات المسلمة التى لا تخرج فيها المرأة للعمل إلا فى أضيق الحدود والضرورة انطلاقا من التشريع القرآنى الحكيم الذى أناط المسؤولية المادية فى الأسرة بالآباء فى قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ سور النساء الآية ٣٤ وقوله تعالى ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ سورة البقرة الآية ٢٢٨.

٢. أن هذه النظرة الإسلامية للرجل بوصفه مصدر كسب الأسرة ومورد دخلها لا تعنى انتقاصا من قدر المرأة أو حطا من شأنها فقد حفظ القرآن الحقوق المادية لطرفى الأسرة كاملة غير منقوصة إذ قال تعالى ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ سورة النساء الآية ٧ وقال تعالى ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ سورة النساء الآية ٣٢.

سعى الآباء إلى الحصول على الولد

إن حب الذرية مفطور فى النفس الإنسانية فقد اقتضت حكمة الخالق عز وجل أن يجعل المال والبنين زينة الحياة وأن يجعل العلاقة الجنسية بين الزوجين هى وسيلة الحصول على البنين فلا غرابة أن يكون تشريع الزواج هو المنبع الطبيعى للتكاثر البشرى، وقد بين القرآن الكريم أن من شأن الإنسان دائما أن يسعى للحصول على الولد فقد قص علينا فى سور مريم كيف دعا نبى الله زكريا عليه السلام ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ سورة مريم الآيات ٤، ٥، ٦

فلما جاءته البشرى أذهلته المفاجأة فتساءل متعجبا ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ «سورة مريم الآية ٨و٩» وقد توقف بعض العلماء أمام هذين الموقفين العجيبين : فهو يسأل ربه غلاما فلما جاءته البشارة بالغلام دهش وتعجب وتساءل عن الكيفية؟ فقال بعض العلماء كان بين سؤاله وورود البشرى أربعين سنة.

وقال بعضهم: بل تساءل عن الطريقة التى سيهبه الله بها الولد؟ هل يهبه إياه فى حالة الشيخوخة أم سيرده إلى حالة الشباب ثم يهبه؟ فهو ليس تساؤلا على سبيل الاستبعاد أو الاستنكار وإنما هو تساؤل التعجب المشوب بالفرح والسرور.

وحتى لا يذهب الظن بعيدا فيتوقع القارىء الكريم أن زكريا عليه السلام حين دعا فقال «فهب لى من لدنك وليا يرثنى» إنما يقصد أحدا من الناس فإننا نذكر القارئ بآيات سورة آل عمران التى جاءت صريحة فى تأكيد دعوة زكريا عليه السلام إنما قصد بها الذرية فقد قال تعالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ سورة آل عمران الآية ٣٨ وقد ذكر القران الكريم فى غير موضوع أن الإنعام على الإنسان بالذرية الصالحة نعمة كبرى من النعم الجليلة ومن ثم فقد امتن الله بها

على إبراهيم عليه السلام فقال ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ سورة العنكبوت الآية ٢٧ ومن الأدعية التي وردت في القرآن الكريم ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ سورة الأحقاف الآية ١٥

فمطلب الذرية إذًا فطرة فطر الله الرجال عليها، فالسعي إليها ليس غريبا على النفس الإنسانية لأن البنين والمال زينة الحياة الدنيا كما قال القرآن الكريم وإحساس الإنسان بأن له أبناء كثيرين يشعره بالقوة والسيطرة لأنه يستعين بهم في قضاء حاجاته ويشعر بأن عمره ممتد ببقائهم من بعده.

اهتمام الآباء بمستقبل أبنائهم

إذا وهب الله الإنسان الأبناء فإنه يجتهد في رعاية مصالحهم ويسعى لتوفير الحياة الكريمة لهم، ويرشدهم إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والأخرة ويسعد بهم إذا كانوا أقوياء ويشفق عليهم إذا أنس منهم ضعفا.

وقد حكى القرآن الكريم مواقف كثيرة للأنبياء مع أبنائهم ظهرت فيها هذه المعاني الكريمة مثل نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي دعا الله تعالى أن يورث الإمامة لأبنائه من بعده قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة الآية ١٢٤

ومعلوم أن الإمامة التي نالها إبراهيم عليه السلام هي النبوة والشرف العظيم الذي اختصه الله تعالى به قال الإمام الفخر الرازي: إن الله تعالى لما وعده بأن يجعله إماما للناس حقق ذلك الوعد فيه إلى قيام الساعة، فإن أهل الأديان على شدة اختلافها يعظمون إبراهيم عليه السلام ويتشرفون بالانتساب إليه إما في النسب وإما في الدين والشريعة.

وقد تكرر هذا الطلب في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليهما السلام فقد دعوا الله تعالى أن ينعم على ذريتهما بنعمة الإسلام احساسا منهما بأن هذه خير دعوة يدعو بها أب لأبنائه، قال تعالى على لسانهما معا ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ سورة البقرة الآية ١٢٨ قال الإمام القرطبي : إنه لم يدع نبي إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته، لهذه الأمة ويحكى الطبري أنه أراد بقوله: «ومن ذريتنا» العرب خاصة قال ابن عطية وهذا ضعيف لأن دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم .

ويقول الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم رضي الله عنه : المراد بالعهد هو النبوة والدعوة إلى الله تعالى وإرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، وهذه عطايا الله سبحانه التي لا يعطيها إلا لمن أقامهم في محابة ومراضيه سبحانه أما من قدر عليهم الشك أو الريب أو الشرك أو النفاق فإنه سبحانه لم يشأ أن ينالهم العهد فرد عليه دعوته لأن الخليل عليه السلام إنسان عصمه الله من الكذب على الله في تبليغ رسالته وجائز عليه الأعراض البشرية، فيحب لأولاده الخير رحمة بهم وشفقة عليهم وليس هذا بقادح في العصمة لأن هذا ليس مقام تبليغ رسالة ولكنه مقام التماس من فضل الله تعالى.

مما سبق يتضح أن:

١ ـ طلب الولد مشروع لكل أب لأنه بوجود الأولاد تصبح حياة الإنسان أكثر سعادة وبهجة.

٢ـ وإن من طبيعة الآباء أن يدعوا لأبنائهم بالخير ويؤثروهم بكل ما يرونه فيه خيرا لهم في دنياهم وأخراهم.

وقد نص القرآن الكريم على أن الإنسان إذا خشي على أبنائه من بعده أن ينالهم ضيم أو يقع عليهم ظلم، فإن عليه أن يتقي الله حق تقاته وخصوصا في معاملته الأيتام من غيره فقال تعالى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ سور النساء الآية ٩ قال الزمخشري رحمه الله في تفسير هذه الآية: المراد بعصم الأوصياء أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى ويشفقوا عليهم خوفا على ذريتهم لوتركوهم ضعافا وشفقتهم عليهم أن يقدروا ذلك في أنفسهم ويصوروه حتى لا يحسروا على خلاف الشفقة والرحمة.

المسؤولية التربوية للآباء

وإذا كان الآباء هم الذين يسعون إلى إنجاب الذرية ويجهدون في سبيل إسعادها، فإن مسؤوليتهم عن تربية أبنائهم تصبح واجبا شرعيا عليهم القيام به ويمكننا من خلال نصوص القرآن الكريم وحدها أن نستنبط حدود تلك المسؤولية ونجملها فيما يلي:

أولا: النصح لهم وذلك ببيان طريق السعادة أمامهم ولفت انتباههم إلي ما ينفعهم في الدنيا والأخرة كما نرى في قوله تعالى ﴿إِذْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ سورة البقرة الآية ١٣٣ وقد تكرر هذا الموقف في موضوع آخر ذكره القرآن الكريم على لسان إبراهيم ويعقوب عليهما السلام في الآية السابقة علي الآية المذكورة قال تعالى :﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ سورة البقرة الآية ١٣٢

ثانيا: تربيتهم على الفضائل: من واجب الآباء أن ينشئوا أبناءهم تنشئة صالحة وذلك بتعويدهم على الاستقامة في السلوك وبيان طرق الكسب الحلال أمامهم وتطبيعهم بالطبائع الخيرة كما يظهر في وصية لقمان لابنه في القرآن الكريم قال تعالى على لسان لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ سورة لقمان الآية ١٧ و ١٨

ثالثا: تعليمهم آداب السلوك: إن الوظيفة التربوية للآباء تعليم الأبناء أداب السلوك الاجتماعي المقبول ويدل علي ذلك قوله تعالي مخاطبا المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ سورة النور الآية ٥٨ ويتصل بهذا أيضا ما فصلته آيات القرآن الكريم مما يتعلق بإبداء الزينة بين المحارم وتنظيم دخول وخروج الأفراد في الأسرة، فإذا خرجنا خارج دائرة الأسرة وجدنا من واجب الآباء التربوي أن يعلموا أبناءهم صلة الرحم والاهتمام بذوي القربى والعطف على المساكين وأبناء السبيل ومن شابههم.

رابعا: تعليمهم طرق الكسب الحلال ـ والمستقرىء لآيات القرآن الكريم يستطيع أن يستنبط من دلالاتها العامة أن على الآباء أن يرشدوا أبناءهم إلى الكسب الحلال حتى تتكون لديهم ثروة يعفون بها أنفسهم عن الحرام ويعيشون بها عيشة راضية لقوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ وقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ سورة البقرة الآية ١٨٠

خامسا: رعاية مطالب النمو فمن المسئولية التربوية للآباء رعاية مطالب نمو الأبناء جسميا ونفسيا واجتماعيا وتهيئة ما يتطلبه ذلك النمو من حاجات واستعدادات نفهم ذلك من قوله تعالى ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ سورة النساء الآية ٦

سادسا: العدل ـ والعدل بين الأبناء مسؤولية تربوية للآباء يترتب عليها إشعارهم جميعا بقدر مشترك من الحنان والعطف وكذلك العدل في الانفاق عليهم ونفهم ذلك من كثير من الأيات التي حضت على العدل والقسط بوجه عام.

بقلم:

أشرف فتحي محمود الجندي

باحث وكاتب اسلامي